المحاضرة العاشرة حول:

التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني

01/- سياسة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني:

تجمع معظم المصادر المحلية أن التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني منتشر انتشارا واسعا وقد غطى كل المناطق بما في ذلك القرى والمداشر رغم أن السلطة العثمانية ركّزت فقط في المحافظة على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب لبيت المال ولم تتدخل في شؤون التعليم باستثناء بعض البايات مثل: محمد الكبير والصالح باي. فالتعليم إذن كان خاصا يقوم على جهود الافراد والمؤسسات الخيرية فالآباء هم الذين كانوا يسهرون على تعليم أطفالهم.

و لم تكن مهنة التعليم من المهن المرغوب فها أو المربحة خلال العهد العثماني، فقد كانت مهنة لا تجلب لصاحبها إلا الفقر، إلا أنها تجلب إليه عطف الناس وإحسانهم واحترامهم المعنوي.

وامتاز العهد العثماني بازدهار الحركة التعليمية والتي ارتبطت بالتعليم الديني أساسا وحين جاء العثمانيون وجدوا حواضر علمية مزدهرة ببجاية وتلمسان وقسنطينة والجزائر وغيرها ، إلا أنه نظرا لظروف سياسية ومخاوف عسكرية نقلت كثير من هذه المراكز من المدن إلى الأرياف .

يقول البوعبدلي: (إن العصر العثماني امتاز في الجزائر بانتقال المراكز الثقافية من المدن إلى القرى، واشتهرت عدة معاهد إذ ذاك في كامل القطر، كمعاهد بني يعلى العجيسي، عبد الرحمان البلولي ... وبني خليل، والمدية ومعاهد الراشدية ومازونة ...)("حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني" العيد مسعود ، مرجع سابق، ص: 60).

ولكن ما يميز هذا العهد هو أن بعض الحكام العثمانيين كانت لهم إسهامات في تشجيع بناء المدارس، وتكريم العلماء وتقريبهم بسبب مساهماتهم المختلفة، ومن بين الذين شجعوا ازدهار التعليم الداي مجمد عثمان باشا (1766م-1791م) وصالح باي قسنطينة(1725-1795) ومحمد الكبير باي (1779-1796) إقليم الغرب، حيث أنشأ صالح باي مدرسة الكتانية، وألحق بالجامع الأخضر مدرسة، وأمر محمد الكبير بتوسيع رقعة التعليم ومنح جوائز للبعض من أهل الفكر.

وقد شجع العثمانيون انتشار حركة التعليم وتركوا الميدان مفتوحا للأفراد والجماعات يقيمون ما يشاءون من مؤسسات دينية أو تعليمية .

وقد قامت بهذا الدور الزوايا والمساجد، التي كان يتعلم بها أبناء الجزائريين اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم، إلى جانب علوم أخرى كالعلوم الشرعية وقواعد اللغة والنحو والسير والأخبار وغير ذلك. وإلى جانب هاتين المؤسستين، كانت العائلات تقيم المدارس لأبنائها في القرى والدواوير، وتكلف معلمين بتعليمهم وتوفر لهم كل وسائل عيشهم .

وهكذا كان انتشار التعليم خلال العهد العثماني انتشارا طيبا، حتى غطى المدينة والقرية والجبل والصحراء ويعترف الجنرال "فاليزي" عام 1834م بأن وضعية التعليم في الجزائر كانت جيدة قبل التواجد الفرنسي، لأن "كل العرب الجزائريين تقريبا يعرفون القراءة والكتابة، إذ تنتشر المدارس في أغلبية القرى والدواوير .

ومما يؤكد المستوى التعليمي الذي كان سائدا في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، والذي يعود الفضل فيه إلى الزوايا والأفراد، ما صرح به "ديشي– " المسؤول عن التعليم العمومي في الجزائر- في قوله: "كانت المدارس بالجزائر والمدن الداخلية، وحتى في أوساط القبائل كثيرة ومجهزة بشكل جيد، وزاخرة بالمخطوطات. ففي مدينة الجزائر هناك مدرسة بكل مسجد،

يجري فيها التعليم مجانيا، ويتقاضى أساتذتها أجورهم من واردات المسجد، وكان من بين مدرسيها أساتذة لامعون تنجذب إلي دروسهم عرب القبائل"...

02/- العوامل المؤثرة في التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني:

2-1- عدم تشجيع السلطة العثمانية للحياة الثقافية:

تشير الكثير من الدراسات والكتابات أن السلطة العثمانية في الجزائر ،لم يكن لذا دور كبير في تشجيع التعليم في الجزائر ،ذلك أن العثمانيين انشغلوا بهدف واحد وهو حماية السواحل الجزائرية من التهديد الخارجي المسيحي في حين أهملوا الجوانب الأخرى كالتعليم والصحة وغيرها .فقد بقيت السلطة العثمانية بعيدة عن أوضاع الجزائريين ،ولم تهتم بها ،لأن العثمانيين بنوا حاجزا بينهم وبين الأهالي الجزائريين.

2-2- ترك الحرية للأهالي في إدارة التعليم :

لم يتدخل العثمانيون في الشؤون الداخلية للجزائريين ،ومن بينها التعليم ووضعيته وبرامجه ،بل اكتفوا بدور المراقب ،لذلك حمل الجزائريون ومؤسسات أخرى دورها من أجل الإشراف على التعليم في الجزائر ،لذلك صبغ التعليم بطابع خاص ولم يتطور كثيرا لأن السلطة الرسمية لم تشرف

عليه .من جهة أخرى يحسب للعثمانيين أنهم لم يقيدوا حركة التعليم ال تركوا الحرية لأهله.

2-3- دور الأوقاف في الحياة الثقافية:

لعبت مؤسسة الأوقاف دورا كبيرا في الإشراف على حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني ،ذلك أن الوقف كان يتكفل ببناء مؤسسات التعليم والتكفل بإقامة العلماء وأجورهم،كما يتكفل الإنفاق على الطلبة وتأمين مصاريف الإيواء والإقامة لهم.

2-4- دور الطرق الصوفية والزوايا في التعليم :

لعبت المؤسسات الدينية دورا كبيرا في الحفاظ على التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني،ونقصد بها الطرق الصوفية والزوايا ،خاصة وأن الجزائر تتوفر على عدد كبير منها سواء في المدن الكبرى أو في الأرياف،فقد كانت تشرف على الحركة العلمية ،وأن كثير من العلماء كانوا خريجي هذه المؤسسات ،زد على ذلك أن العثمانيين قربوا هذه المؤسسات وتركوا لها حرية العمل.

2-5- طغيان التعليم الديني:

ما يميز التعليم في الجزائر وأثر على طبيعته هو طغيان التعليم الديني ومبادئه،والذي كان سيمة غالبة في البلاد الإسلامية في تلك الفترة ،وقد صبغ التعليم بالتعليم الديني بنسبة كبيرة. مقارنة بالتعليم في الدول الأوربية التي كانت تتوجه إلى التعليم العقلي،خاصة مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

6-2- اللغة التركية الرسمية ولغة الأهالي العربية:

أثر الاختلاف الموجود في لغة العثمانيين التركية،التي كانت اللغة الرسمية للجزائر ،مع اللغة العربية التي كانت لغة التدريس في اهتمام العثمانيين بالتعليم ،مما أثر سلبا على حركة التعليم في هذه الفترة.

ومما سبق يمكن القول أن مجموعة من العوامل أثرت وتحكمت في الحالة الثقافية للجزائر خلال العهد العثماني، والتي ساهمت في تحديد طبيعتها ومدى تطورها.

03/- طرق التعليم وبرامجه:

كان التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني يتم بالطرق التقليدية المعروفة أنذاك في البلاد الإسلامية ،فكان يتم في المؤسسات التعليمية وهي الكتاتيب والمساجد .ورغم ما يقال من طرف بعض الكتابات عن ضعف

التعليم خلال العهد العثماني ،إلا أن تلك الكتابات تجمع على أن العثمانيين لم يبخلوا على التعليم من خلال بناء المؤسسات التعليمية الدينية ،وأوقفوا الكثير لأجلها ،ولم يمنعوا الواقفين لتمويلها.

وقد كان التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني يمر بمراحل ،حيث يبدأ المرحلة الأولية في الكتاتيب بدراسة القرآن ،واللغة العربية ،والقراءة والكتابة ،ثم ينتقل الطلبة بعد إتمام المرحلة الابتدائية بتوجههم إلى المساجد لدراسة الفقه وعلوم التفسير والنحو ،والأدب وغيرها ،وبعد ذلك يتوجهون إلى المعاهد الإسلامية للتعمق في دراسة العلوم السابقة ،كما يضيفون عليها بدراسة بعض العلوم العقلية كالحساب وعلوم الطبيعة.

وقد ظلت ارامج التعليم تعتمد على العلوم الدرتبطة االدين ،لأنها الديزة الغالبة في البلاد اإضسلامية ،وفي ذلك العصر ،كما كان التدرج من مرحلة إلى أخرى من الكتاتيب إلى الدساجد ،ثم التخصص في اعض العلوم لبعض الطلبة في الدعاهد اإضسلامية ،وقد غلبت العلوم النقلية على ارامج التعليم مقارنة االعلوم العقلية ،التي انحصرت في الطب والصيدلة وعلم الفلك.

04/- المستويات التعليمية :

لم تكن مستويات المتعلمين والتعليم جيدة إلى حد بعيد ،وذلك نتيجة العوامل التي تحكمت في الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني فكان المتعلم في المرحلة الابتدائية والثانوي لا يتجاوز الكتابة والقراءة والأخذ عن شيخه أو شيوخه ،وهذه ميزة عامة في كل المدارس ،ولا يستطيع المناقشة والتحليل والحوار والتعمق ،فالمتعلم يأخذ عن معلمه أو شيخه ويجيز ،وهذا متعارف عليه في هذه الفترة ،في حين يستطيع الطالب التعمق في البحث والعلوم إذا انتقل إلى المعاهد العليا .

ومما سبق يمكن القول أنه رغم وجود التعليم في الجزائر في العهد العثماني وتنوع مؤسساته وبرامجه ومواد ،إلا أنه تميز بطغيان التعليم الديني وذلك نظرا لطبيعة العصر في تلك الفترة ،ونتيجة انتشار طرق معينة للتدريس تميزت بارتباط الطلبة بشيوخهم وأخذهم عنهم دون تحليل للمعرفة أو تعمق فيها ،وهذه طبيعة العلوم الدينية في تلك المرحلة.

05/- المراكز التعليمية:

- المساجد.

- الكتاتيب.
- المدارس.
- الزوايا.
- المعاهد العليا.

حيث كانت هذه المسؤولة عن التعليم في الجزائر خلال فترة الحكم العثماني، وقد سبق تناولها في المحاضرات السابقة.

قائمة المراجع المعتمدة في المحاضرة:

01/- العيد مسعود ، مرجع سابق.

02/- دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827-1840) ط1، دار البعث ، الجزائر 1987.

03/- ناصر الدين سعيدون،المرجع السابق.